فقه الواقع

بقلم

الدكتور

عبد المعطي محمد بيومي

عميد كلية أصول الدين - القاهرة

فقه الواقع

نحن فى حاجة إلى فقه جديد يراعى الواقع ويضع فى حسابه التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتعقيدات فى العلاقات والمشكلات الجديدة التى باتت تفرض نفسها على الساحة الإسلامية .

وأبادر إلى القول إن الفقه الجديد « فقه الواقع » ـ الذى ندعو إليه ليس بديلا عن تراثنا العظيم فى الفقه الإسلامى ، لأنى أعرف أن هناك قلوباً غلفاً وعقولا صما وأناساً بليدى الحس لا يفقهون إلا قليلا ، سيسارعون فى ظن السوء قد نظنون اننا نقلل من تراثنا القديم لكننا نؤكد أن الفقه الذى ندعو إليه ليس بديلا عما تركه أجدادنا من الأئمة العظام الذين أثروا الحضارة الإنسانية ، بل هو امتداد صحيح له .

وأقول : إن الفقه الجديد امتداد صحيح للقديم لأنه ليس معنى أن نردد ما قال الأقدمون ونظل حبيسى كتبهم لا نتجاوزها ، امتدادا للقديم ، بل هو جمود عليه وقطع لطريقه وتوقف عنده .

ولكن الامتداد الصحيح للقديم أن نجعله منطلقاً أوساساً نبنى عليه ونفرع منه ونستأنس ، به إنه من قبيل تجديده وإحيائه وأن تحقق هذا بآراء تنقده أو تخالف بعض ما فيه . فمن قبيل تجديد المذاهب الفقهية أن ننقدها نقداً بمعايير العلم وبما أفادت الإنسانية من معايير النقد ، وعلى أصحاب القلوب الغلف والعقول الصماء أن تفهم الفرق بين النقد والنقض .

وإن هذا التجديد الذى يراعى الواقع ويجيل النظر بين النص والواقع أمرا ضروريا لاستمرار الإسلام نفسه ، ومواكبته لحاجات المسلمين فى كل زمان ومكان .

وبدون رعاية الواقع يتخلف العقل الإسلامى وتتجمد مسيرة الإسلام عند عصر معين لا تتجاوزه ، وبذلك يتوقف النماء والحيوية وتبطل المعاصرة للإسلام كدين أراده الله أن يكون حياً دائماً متجدداً . وهذا هو معنى ما نكرره دائماً من أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان .

ولقد حض رسول الله ﷺ على القيام بمهمة التجديد للدين، وأوضح أن الذين يقومون بهذه المهمة الضرورية للدين والدنيا هم مبعوثون من العناية الإلهية، حيث قال ﷺ فيما رواه أبو داود عن أبى هريرة رضى الله عنه « يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها ».

وقد أخرج هذا الحديث كثيرون — أخرجه أبو داود فى الملاحم والحاكم فى الفتن وصححه ، والبيهقى فى كتاب المعرفة كلهم عن أبى هريرة قال الزين العراقى وغيره . . سنده صحيح (المناوى . فيض القدير ج ١ ص ٨١) .

ويبنى على صحة هذا الحديث صحة الفكرة التى يعبر عنها، والتى يمكن أن نجمعها فى النقاط التالية :

١ — أن هذه الأمة بتطور الحياة بها ، وتغير الوجود عليها ، ستنحرف أحياناً عن بعض سنن الإسلام وأحكامه ، بحيث تندرس وتنقرض هذه السنن والأحكام ويهجرها الكثيرون من الناس .

٢ — أن الله سبحانه وتعالى لن يترك هذه الأمة . بل سيتعهدها بحفظه ورعايته ، فيبعث لها من يجدد لها دينها ، ويحيى العمل به .

٣ — أن هذا التجديد سيستمر باطراد وانتظام فى جدول زمنى (على رأس كل مائة سنة) حتى لا يطول العهد على ما ينقرض من أحكام الإسلام فى مسيرة الأمة فى التاريخ .

وكل هذا يجعل من فكرة التجديد أمراً مقرراً فى الإسلام كخصيصة من خصائصه التى تلازمه ولا تنفك عنه ، تمد الإسلام بالحياة والاستمرار .

وإذا كان تجديد الدين وإحياء أحكامه فى فقه جديد يراعى الواقع فالتجديد الحقيقى إنما يكون بإجالة النظر بين النص والواقع ، واستلهام النص حكماً يطبق على الواقع ، واستلهام الواقع حكماً يتضمنه النص .

والمطالبة والملاءمة بين النص والواقع هى المقصودة أساساً بتجديد الدين وإحياء سننه وأحكامه .

فالتجديد كما حدده العلامة المناوى — هى « القيام بأعباء الحوادث » أى بأحداث الواقع ومشكلاته ومستجداته ، ومعرفة أحكام الدين التى لم تف ظواهر النصوص ببيانها على أساس أن مشكلات الحياة وأحداثها إذا كانت لا تتناهى كثرة وتنوعاً فإن النصوص وإن كانت تتناهى فى الكم إلا أنها تتضمن الكثير من المعانى مما يستطاع معه الاستفادة فى توجيه وترشيد الأحداث والمشكلات الكثيرة .

يقول المناوى فى مقدمة كتابه « فيض القدير » :

« وذلك لأنه سبحانه وتعالى لما جعل المصطفى خاتمة الأنبياء والرسل، وكانت حوادث الأيام خارجة عن التعداد ، ومعرفة أحكام الدين لازمة إلى يوم التناد ، ولم تف ظواهر النصوص ببيانها ، بل لابد من طريق واف بشأنها ، اقتضت حكمة الملك العلام ظهور قوم من الأعلام فى غرة كل قرن ليقوم بأعباء الحوادث إجراء لهذه الأمة مع علمائهم مجرى بنى إسرائيل مع أنبيائهم » .

فمهمة المجدد أن يجعل عينا على الواقع وعينا على النص بحيث إذا تغير

الواقع فإن على الفقيه أو المفكر أن يغير فهمه للنص حتى يستخرج مما يحتمله النص حلا أو حكماً للواقع الجديد، لأن النص ثابت لا يتغير، وإنما يتغير الفهم والاستنباط.

ولنا فى الإمام الشافعى مثل حى على الفكر المتجدد والفقه الحى، فقد عاش الإمام الشافعى فى بغداد يدافع عن مذهبه ويجادل عنه فى مناظرات حامية الوطيس أئمة المذهب الحنفى وعلى رأسهم الإمام محمد بن الحسن الشيبانى.

ومع أن الإمام الشافعى كان يشعر بامتنان عظيم ووفاء وولاء كاملين للإمام الشيبانى الذى أنقذه من الإعدام فى مجلس الخليفة الذى جاء بالإمام الشافعى مكبلا من السجن إلى بغداد متهما بالعمل مع فلول الأمويين وبقاياهم باليمن.

لكن الإمام الشافعى رغم ولائه ووفائه للشيبانى لم يغير مذهبه من أجله ودافع عنه فى مناظراته مع ذلك الإمام الحنفى المذهب، ولكنه لما جاء إلى مصر واختلط بواقع جديد وأحداث فيه جديدة وقضايا وأفكار، تنازل طوعا عن مذهبه الذى دافع عنه فى بغداد وأسس له مذهباً جديداً وأصبح هذا المذهب الجديد هو المذهب المعتمد فى تاريخ الإمام الشافعى وأصبحت كتبه «الرسالة»، «والأم»، التى اعتمدها فى مصر ونقحها هى المعتمدة دون ما كتبه فى بغداد.

وقد رأينا نفس الصنيع عند الإمام الجليل أحمد بن حنبل الذى عذب فى محنته الشهيرة ورفض التأويل فى بداية أمره رغم المحنة من السجن والتعذيب. لكنه لما تغيرت الظروف وكثرت المبتدعة والزنادقة أقبل على تأويل بعض النصوص، وهو الذى رفض التأويل من قبل. وألف رسالته فى الرد على الجهمية تمتلىء بالتأويل.

هكذا كان أئمة الإسلام فى التعامل مع الواقع ومقتضياته ومشكلاته والتعامل مع النصوص لعلاج الواقع ومقتضياته ومشكلاته والتعامل مع النصوص لعلاج الواقع ومقتضاته كلما تغير الواقع كما تغير فهمنا واستنتاجاتنا من النصوص بقدر ما تحتمله النصوص، واعتبار النصوص معيناً متجدداً لا تنفد معانيها ولا تفنى، كما لا تنتهى حوادث الواقع ولا تقف حركة الحياة.

لكننا يجب أن نلاحظ أن على الفقيه أن يعمل على رعاية الواقع بحيث تكون فتواه معتمدة على النص الواقع واستخراج المصلحة التى تصلح الواقع فى ضوء النص، ولا يعزل النص بعيدا عن الواقع أو يفهم النص فهما لا يصلح الواقع ولا يصلح للواقع.

ومن أجل ذلك فإن الشرع الشريف احتوى فى القرآن والسنة على ما يدل الفقهاء والمسلمين جميعاً على رعاية الواقع ورعاية المصلحة.

فمؤشرات رعاية المصلحة والواقع فى الإسلام وضع العقل وضعاً خاصاً فى الإسلام.

فالعقل مصدر أساسى للتشريع لأنه يقوم بعملية القياس الذى يقف جنباً إلى جنب مع مصادر الإسلام الأساسية: الكتاب والسنة والإجماع بحيث نستطيع أن نقول إن مصادر الإسلام الرئيسة هى الوحى والعقل جنباً إلى جنب.

وما مهمة العقل هنا إلا تطبيق الوحى على الواقع. وبالإضافة إلى هذه المكانة التى يتميز بها العقل فقد جعله الله مناط التكليف بحيث إذا وجد العقل وجد التكليف وإذا سقط العقل سقط التكليف إذ يقول رسول الله ﷺ «رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ وعن الصغير حتى يكبر وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق».

ويقول عليه الصلاة والسلام « عفى عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه ».

حتى فى المجال الذى ينأى الإسلام بالعقل أن يقتحمه وهو مجال الغيبيات التى تتعلق بذات الله وحقيقته ، فإن الإسلام ما منع العقل عن هذا المجال إلا لكى يركز العقل نشاطه فى الفكر العملى فذلك خير له من التخبط فى مجال الغيب . فهو موقف يحسب للإسلام فى إنهاض الحياة العملية .

ولذلك نرى الإسلام فى مجال الحياة العملية والشئون الدنيوية من الحرف ، والصناعات ، ووسائل المعاش ، وما لم يرد فيه نص من كتاب الله أو سنة رسوله عليه الصلاة والسلام .

فان الإسلام ترك تقدير كل ذلك للإنسان ذاته وجعله حراً فيه ، يختار ما يشاء ، إذا لم يحدد الوحى نصاً خاصا يلزم به فى حياته .

روى مسلم عن موسى بن طلحة عن أبيه قال .

« مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رءوس النخل فقال . . ما يصنع هؤلاء ؟ فقالوا يلقحون . يجعلون الذكر فى الأنثى فتلقح ، فقال رسول الله ﷺ . . ما أظن يغنى ذلك شيئا . قال . . فأخبروا بذلك فتركوه فأخبر رسول الله ﷺ بذلك ، فقال . . إن كان ينفعهم فليصنعوه . فانى ظننت ظنا ، فلا تؤاخذنى بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به ، فانى لن أكذب على الله عز وجل » .

كما روى عنه ﷺ أنه قال « أنتم أعلم بأمور دنياكم » رواه مسلم .

كما قال « إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشىء من دينكم فخذوه ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فانما أنا بشر » رواه مسلم أيضا .

فأمور دنيانا إذن ، التى لم يحدد فيها الوحى ـ كتابا أو سنة ـ طريقا معينة لسلوكها والسير على مقتضاها ، فنحن فى حل من أن نسلك فيها ما نشاء ولا حرج علينا فى ذلك ولا مشقة .

ولا ريب فى أن هذا المجال من مجالات الحياة يستطيع الفكر أن يعدد الكثير من الحياة الإسلامية ولا يتجاوز فى ذلك حدود الإسلام ولا يخرج عنه فى شىء . كما تستطيع الخبرة الإنسانية أن تؤدى دورها بكل انطلاق وحرية ، داخل الإطار العام الفسيح لمقاصد الدين وغاياته .

— وفى مجالات أخرى عديدة بدت رعاية المصالح من لدن الشرع منذ وقت مبكر ودلت عليه مؤشرات هامة .

— ففى مجال التشريع :

والتشريع ـ كما هو معلوم ـ هو نظام الحياة العملية والتعبدية ، ومحك التجربة العملية لنظام الإسلام التشريعى ، هو ذلك التاريخ الطويل الذى استطاع به التشريع أن يمد الحياة بالأحكام المتجددة بتجدد الأحداث ، بما يقيم العدل ويحقق المصلحة للبشر جميعاً .

وتبدو مؤشرات رعاته مصالح العباد من خلال : —

— التدرج فى الأحكام . فقد اقتضت الشريعة تحريم أمور معينة ، لكنها كانت متأصلة فى الحياة الجاهلية ، كأنما كان العربى يرى فيها أساسيات لوجوده ، فرعاية للمصلحة ، وتخفيفاً على الناس ، فان الشارع تدرج فى تشريع أحكامه ، حتى لا تحدث طفرة فى النفوس ، وربما يفهم منها أن الشريعة تصادم الطبيعة .

وعلى سبيل المثال لهذه الأحكام . . أن العرب فى الجاهلية كانوا

يتعاطون الخمر ، كعادة سائدة ، وكان تحريم الخمر على دفعة واحدة سوقا للناس فجأة على غير المألوف ، ولكن نزل قوله تعالى (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما)[1] .

فكانت هذه الآية مقدمة للتحريم حيث يحكم العقل بترك ما كثر ضرره على نفعه ، فأوجدت شعوراً عاما بعدم الارتياح لتعاطى الخمر ، فلما نزل قول الله تعالى بعد ذلك ، (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون)[2] ، إرتاحت النفوس إلى اجتناب شرب كل مسكر قبيل الصلاة ، ولما كانت الصلاة المفروضة تتكرر خمس مرات كل يوم ، وكان أصحاب النبى ﷺ ، يحبون قيام الليل ولم يكن هناك تناول لمسكر فى هذه الأوقات جميعاً ، أصبح واضحا أن الأوقات المسكوت عنها بصدد الشراب باتت أوقاتاً ضئيلة ، فلما نزل الحسم فى الموضوع بالتحريم الكلى فى قوله سبحانه (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون)[3] كان هناك ارتياح عام ، وتقبل نفسى للحكم الجديد .

وكذلك كان الصوم أول أمره اختيارياً ، فكان المسلم مخيرا بين أن يصوم وبين أن يفدى ، حتى إذا فرض الصيام إلا على الذين يطيقونه ، كانت النفوس قد ألفته ووجدت فيه خيراً .

كل ذلك يعطى انطباعا عاما ، لدى رعاية التشريع للمصلحة ، ويعطى نموذجا ينبغى أن يكون عليه الإصلاح وخط سير المصلحين .

— النسخ .. وكما كان التدرج فى التشريع مؤشرا لرعاية المصلحة

(١) سورة البقرة ٢١٩ (٢) سورة النساء ٤٣
(٣) سورة المائدة ٩٠

فقد كان النسخ لبعض الأحكام واستبدالها بأخرى على وفق المصلحة ، ومقتضى التطور الإنسانى لقبول الأحكام ، قال سبحانه وتعالى (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها)[1] .

ومهما قيل فى النسخ من دراسات ، لا نتعرض لها هنا ، ولكن يعنينا منها .

(أ) أنه قد وضع فعلا ، فقد نسخت الوصية للوالدين والأقربين فى قوله تعالى (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين)[2] بقوله ﷺ « لا وصية لوارث » .

(ب) أنه إنتهى وقوع النسخ ولم يعد هناك نسخ بعد إكمال الوحى وإتمام الشريعة (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى)[3] .

(ح) وهو يعطى مؤشراً قوياً لرعاية المصلحة ووجوبها على الفقيه المسلم بحيث يتحرى المصلحة بقدر ما يتحرى النصوص بحيث لو وقف أمام النص وحده دون مصلحة العباد كان مقصرا فى فتواه .

— التعليل للأحكام :

كذلك كان تعليل الأحكام مؤشرا هاما من مؤشرات رعاية المصلحة من لدن التشريع ، وهو الذى نلحظه كثيرا وهو إيراد العلة مع كل حكم ، فى الأغلب الأعم من الأمور .

(١) سورة البقرة ١٠٦
(٢) سورة البقرة ١٨٠
(٣) سورة المائدة ٢

فمثلا فى قول الله تعالى (لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى) نجد العلة رديفة لذلك (حتى تعلموا ما تقولون) .

و (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) والعلة (لعلكم تتقون)[1] وهكذا فى معظم الأحكام ، خاصة ما تعلق منها بأمور المعاملات الجارية بين الناس والمتغيرة بتغير البيئات والأزمان .

ولذلك :

— ساغ لأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، أن يمنح المؤلفة قلوبهم سهمهم من الزكاة فى قوله تعالى (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله)[2] .

فقد آمن عمر بقول الله ، وفهم حكمه وعلته من روح الشرع العام ، ورعايته لمصالح الخلق فاقتنع بأن الحكم ذو شقين حسب العلة ، إن ضعف الإسلام واحتاج إلى المؤلفة قلوبهم فليعطوا ، وإذا لم يحتج فليمنعوا ، فلا نسخ هنا ولا تعليق ولا إيقاف ، لكن إمضاء للحكم مع العلة التى تدور معه حيث دار .

ويقينى أن لو كان أمير المؤمنين عمر حيا اليوم ، يرى حاجة الإسلام فى أماكن متفرقة من العالم إلى مؤلفة القلوب ، لأعطاهم ما قدر الله لهم .

كما ساغ دوران العلة مع المعلول للإمام الشافعى رضى الله عنه أن يكون له مذهب جديد بعد مذهبه القديم على مقتضى البيئات ، وتغير الأحوال وعلل الأحكام .

---

(١) سورة البقرة ١٨٣

(٢) سورة التوبة ٦٠

يقول الإمام الشاطبى فى الموافقات[1] تحت عنوان « أن الأصل فى العادات الالتفات إلى المعانى » (إنا وجدنا الشارع قاصدا لمصالح العباد ، والأحكام العادية تدور معه حيثما دار ، فترى الشىء الواحد يمنع فى حال لا تكون فيه مصلحة ، فإذا كان فيه مصلحة جاز) .

يقول الإمام ابن القيم فى « إعلام الموقعين »[2] — وفى مقدمته فصل طويل حافل بالمسائل التى تغيرت أحكامها بتغير عللها الناتجة من تغير أزمنتها وأحوالها — « فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وهى عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها ، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث ، فليست من الشريعة ، وإن أدخلت فيها بالتأويل » .

• • •

---

(١) جـ ٢ ص ٣٠٥ ط : المكتبة التجارية .

(٢) جـ ٣ ص ١٤ ط ١ المكتبة التجارية

النورسى والمنهج[1] الاستدلالى للقرآن الكريم

تناول الإمام بديع الزمان النورسى - رحمه الله - منهجا إيمانيا يقوم على المنهج الاستدلالى . إذ لا يتناول أمرا إلا ومعه ، أو قد سبقة برهان ودليل لإثباته ، سواء كانت تلك الأدلة شرعية نقلية أو أدلة عقلية أو فطرية ... ولعل هذا هو السرفى إلزامها المعاندين وإلجامها لهم .

أما طريقته فى الاستشهاد بالآيات أو الأحاديث أو أية قاعدة شرعية كانت ، فإنه يمهد العقل ويهىء النفس لقبول ذلك الدليل الشرعى فيذكر الآية أو الحديث ثم يستطرد فى الشرح والتحليل .

وهذا المنهج الاستدلالى لرسائل النور كما يقول مؤلفها فى هذا العصر، وفى هذا الوقت بالذات عروة وثقى ، أى سلسلة قوية لا تنقطع ، وهى حبل الله ، فمن استمسك به فقد نجا»[2] إذ أن أغلب العقول والنفوس قد اصطبغت بآراء الفلاسفة الماديين ورانت على القلوب المخالفات التى حجبت الناس عن إدراك مرامى الآية أو الحديث أو أى دليل شرعى آخر ، لذا لا ترى الاستشهاد الكثير عنده بهما إلا بعد مقدمات تأخذ بأطراف النفس والعقل والروح »[3] .

وهو بهذا يربى عند الإنسان القدرة على معرفة الدليل ، ووزن الكلام المقروء والمسموع بميزان الإسلام حيث يقول : أرونى مفسداً

---

(١) بقية البحث المنشور بالحولية من ص٩٥ إلى ص١١٨ للدكتور سامى حجازى

(٢) مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان للإمام بديع الزمان سعيد النورسى ص ٦٧ ترجمة الأستاذ احسان قاسم الصالحى ط ١٩٩١م وراجع بديع الزمان سعيد النورسى للمترجم ص ٢٢٨ ط ١٩٩٦م

(٣) انظر المرجع السابق

يقول : أنا مفسد !! وما هو إلا مفسد إلا أنه يتراءى فى صورة الحق، أو يرى الباطل حقاً »[1] أى وليس هناك من يصم نفسه بالفساد ، بل غالبا ما يظهر المفسد نفسه بمظهر الصلاح والصواب .

ولذا فالمتأمل يقف على أن الإمام النورسى فى منهجه رجح الاستدلال بالأثر على المؤثر السالم من الشبهات ، وهو الطريق الأصوب للاستدلال ولا سيما فى عصرنا هذا الذى اتخذ المادة أساساً لكل شىء .

لذا ساق الأستاذ الأمثلة المادية الملموسة كدليل فى المسائل الإيمانية، بخلاف علماء الغرب — المتدينين — الذين رجحوا الاستدلال بالمؤثر، على الأثر ، حيث ساقوا المسائل التى استعصت على العلم الحديث — والتى لم يتمكن من كشف نتائجها وتوضيحها بعد — كشواهد لإثبات عظمة الخالق ودلائل قدرته سبحانه ، وكأنهم أعطوا — بهذا فضل ما اكتشفه العلم إلى العلم نفسه ، وما عجز عنه إلى الله سبحانه !!!

ولكن حينما تتوضح المسألة — بعد الكشف العلمى — وتصبح من الأمور البديهية ، فإن تلك الأمور الاعتقادية سوف تتضعضع وبدورها يضعف الإيمان ... وقد انهار الإيمان عند بعضهم فعلا »[2] .

ويبلغ الإمام النورسى إلى درجة يوحد فيها قبلة فكره وروحه وقلبه ويجمع « الكل » على القرآن الكريم ، ويتلقى منه وحده ويأخذ عنه ويعتبره الأستاذ والمرشد فيجلس بين يديه ويتلقى منه الأسرار والفيوض والرحمات »[3] .

---

(١) راجع الأستاذ احسان قاسم الصالحى فى مؤلفه بديع الزمان سعيد النورسى ص ٢٢٨ ط الثانية ١٩٩٦م

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٠

(٣) بديع الزمان مرشد أهل القرآن

ولذا يبرهن لهؤلاء وأولئك الذين أفرطوا والذين فرطوا حتى انهار الإيمان عند بعضهم بطمس منبهات الفطرة والدين فيقول : كما أن دلالة النار إلى الدخان — التى هى دلالة المؤثر على الأثر — تسمى بـ « البرهان اللمى » كذلك فإن دلالة الدخان على النار — أى دلالة الأثر على المؤثر — تسمى بـ « البرهان الآنى » وإن البرهان الآنى هذا هو أسلم من الشبهات »[1] .

غير أن الأستاذ النورسى الذى رجح الاستدلال النابع من الأثر على المؤثر ، قد وجه الأنظار إلى « حكمة » كل شىء وكل حادثة من حوداث الكون ، سواء فى ذلك علمت نتيجتها أم لم تعلم بعد . . واختار التعريف بالمؤثر الحقيقى بصفاته الجليلة وأسمائه الحسنى، لذا فكلما يتقدم العلم ويعلن للأوساط حكماً جديداً بكشفه عن كيفية نشوء الحوادث ، يصبح وسيلة لفهم أوضح للمسائل الإيمانية ، وبهذا يصدق نهج رسائل النور فى دعواها « كلما يشيب الزمان فإن القرآن يزداد شبابا ونضارة أكثر ، وتستبين رموزه »[2] .

وبناء على ما تقدم يوقظ « بديع الزمان النورسى » فى إدراك كل من يأتى ضيفا إلى مملكة هذه الدنيا ويحل فى دار ضيافتها أنه ، كلما فتح عينيه ونظر وفكر يقف على منافذ فكرية متشعبة الجوانب ، ومفاتيح

---

(١) المرجع نفسه وراجع اشارات الإعجاز للإمام بديع الزمان سعيد النورسى ح ٥ ص ٤٨ ، ١٥٠ ط ١٩٩٤ م وراجع دكتور / فرج محمد الوصيف بديع الزمان سعيد النورسى عصره ودعوته ص ٢٥٥ ط الأولى ١٩٩٦ م

(٢) المرجع السابق للأستاذ احسان قاسم الصالحى ص ٣٣١

إيمانية تحمل الكثير من الأفكار والأحاسيس والمشاعر فى وحدة معرفية متشابكة الجذور، وتوحد ذاتى لا يعرف الانقسام بين جوانب النفس المتعدده، فأفكاره وأحاسيسه ومشاعره يموج بعضها فى بعض، ويندرج بعضها ببعض ويشدّ بعضها أزرَ بعض.

وما كل ذلك إلا لأنه قد وهب نفساً تواقة إلى حقائق الحياة والوجود، كما منح عقـــلا مسئولا ينبغى أن يدفعه عن الخوض فى الضحضاح من المفاهيم والأفكار الجاهزة الجافية للفطرة من جانب وللدين من جانب آخر[1].

كما ينبغى أن يدفعه شغفه بالحقيقة إلى الكشف عنها بنفسه كما هى فى كتاب الكون المنظور الذى فسر براهينه كتاب الله المقروء القرآن الكريم، قال تعالى «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين[2]».

وقال تعالى «إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم»[3] فكان الإسلام شاملا للمنهج الإلهى فى كتاب الله المنظور كما هو فى كتاب الله المقروء — القرآن الكريم — خاتمة هدايات الله للبشر قال تعالى «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم»[4].

---

(١) راجع الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ مطارحات فى المعرفة الإيمانية عند النورسى ص ٧ ط الأولى ١٩٩٧ م

(٢) سورة البقرة الآية ٢

(٣) سورة الإسراء جزء من الآية ٩

(٤) سورة المائدة الآية ١٦

وحرصا على بلوغ هذا الصراط المستقيم، ورحمة من الخالق للمخلوق، كانت الآيات التى نستقى منها أصول الهداية الإيمانية هى أول ما يستفتح به كل نداء جاء به كتاب الله — القرآن الكريم — تلك هى سورة الفاتحة.

«بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين».

وبيان ذلك يتضح فيما بنيت عليه هذه الآيات البينات حيث تبين الطريق إلى:

أولا: مصدر الهدى الموصل إلى الصراط المستقيم.

ثانياً: أسباب أفاضة الهدى.

ثالثاً: أسباب منع الهدى.

رابعاً: نتيجة الهدى وفائدته.

أولا: مصدر الهدى الموصل إلى الصراط المستقيم:

إن صدر السورة الكريمة يبين أن الهدى يأتى من الله سبحانه وتعالى «اهدنا الصراط المستقيم».

ووجه النظم كما يقول الإمام — النورسى — إنه جواب العبد — السائح الذى قدم إلى الدنيا — عن سؤاله تعالى كأنه يسأل: أى مقاصدك أعلقُ بقلبك[1]؟

---

(١) سورة الفاتحة الآية ٦ ويتأيد ذلك بآيات كثيرة وأحاديث: =

فيقول العبد : « اهدنا الصراط المستقيم » الذى هو العدل[1] .

وهذا البيان بما يشتمل عليه من نصوص قرآنه وأحاديث نبوية يدعو إلى الاستعانة بهدى الله فى كل لحظات الحياة كما يقول العلامة ابن أبى العز فى شرحه على العقيدة الطحاوية :

« أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة : « اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

فإنه إذا هداه الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته ، فلم يصبه شر لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

لكن الإنسان محتاج إلى الهدى فى كل لحظة ، لأن الذنوب من لوازم النفس ، فهو إلى الهدى أحوج منه إلى الطعام والشراب ليس هذا فحسب بل والماء والهواء وليس كما يقول العبض : أن المواد التثبيت أو مزيد

= قال تعالى : « قل إن هدى الله هو الهدى » سورة البقرة الآية ١٢٠ .

قال تعالى : « ومن يهد الله فهو المهتد » سورة الإسراء الآية ٩٧

قال تعالى : « وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » سورة الأعراف الآية ٤٣

قال تعالى : « وإن اهتدين فبما يوحى إلى ربى » سورة سبأ الآية ٥٠

كما ورد فى صحيح الإمام البخارى « والله لولا الله ما اهتدينا »

ويقول عليه الصلاة والسلام « اللهم إنى أسألك الهدى ، والسداد ، وأذكر بالهدى هدايتك الطريق وبالسداد سداد السهم » ذكره الإمام مسلم فى صحيحه فى باب التعوذ من شر ما عمل وما لم يعمل

(١) الإمام بديع الزمان المرجع السابق ص ٣٢

الهداية ، بل العبد محتاج إلى أن يعلمه الله ما يفعله من تفاصيل الأوامر وإلى ما يتركه من تفاصيل النواهى فى كل لحظات الحياة .

كما أنه محتاج إلى أن يلهمه العمل بما علمه ، لأنه لا يكفى مجرد علمه أن يجعله مريدا للعمل بما يعلمه .

ولو لم يهده الله للعمل بما علمه ، لكان العلم الذى علمه إياه حجة عليه ولم يكن مهتديا به .

ومع كل هذا فهو محتاج إلى أن يجعله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة التى ألهمه الله إياها .

وبعد ذلك كله هداية أخرى وهى الهداية إلى طريق الجنة فى الآخرة[1] .

ومن عرف هذا حق المعرفة انفتح له باب التوجه إلى الله وحده ، وعلم أنه لا يستحق أن يسأل غيره ، ولا يتوكل على غيره ، ولا يهتدى بغيره ، ولا يستغنى عن هداه مخلوق[2] . وهنا يتجلى الصراط المستقيم وأنه العدل.

ولذا يقول الإمام « النورسى » إن الله عز وجل لما أسكن الروح فى البدن المتحول المحتاج المعروض للمهالك أودع لإدامتها فيه قوى ثلاثا :

إحداها : القوة الشهوية البهيمية الجاذبة للمنافع .

وثانيتها : القوة الغضبية الدافعة للمضرات والمخربات .

---

(١) راجع الأستاذ الدكتور/ يحيى هاشم مدخل إلى العقيدة الإسلامية ص ١٧ ط ١٩٨٥ م

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العز ص ٢٦٩ — ٢٧٠ نقلا عن المرجع السابق ص ١٨

وثالثتها : القوة العقلية المميزة بين النفع والضر »[1] .

ويفسر بديع الزمان — النورسى — هذه القوى المتعددة فى طلب الصراط المستقيم بتوحيد قبلة الفكر والروح والقلب ، وإن يجمع الإنسان الكل على مصدر الهدى الموصل إلى العدل الذى هو الصراط المستقيم كما هو فى القرآن الكريم فيقول : « لكن الله تعالى بحكمته المقتضية لتكمل البشر بسر المسابقة — لم يحدد بالفطرة تلك القوى كما حدد قوى سائر الحيوانات ، وإن حددها بالشريعة . لأنها تنهى عن الافراط والتفريط وتأمر بالوسط ، « فاستقم كما أمرت » .

وبعدم التحديد الفطرى يحصل مراتب ثلاث :

(•) مرتبة النقصان وهى التفريط .

(•) مرتبة الزيادة وهى الافراط .

(•) مرتبة الوسط وهى العدل[2] : الذى هو الصراط المستقيم .

• ثانياً : أسباب افاضة الهدى من الله تعالى :

تبين السورة أن الهدى نعمة من الله تأتى نتيجة التوجه إليه بحمده والثناء عليه بأسمائه الحسنى . . . من حيث هو سبحانه المستحق وحده للعبادة ليس هذا فحسب بل ومن حيث هو وحده المستعان .

---

(١) راجع الإمام بديع الزمان سعيد النورسى إشارات الإعجاز فى مظان الايجاز ح ٥ ص ٣٢ ط ١٩٩٤م

(٢) راجع الإمام بديع الزمان سعيد النورسى اشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز ح ٥ ص ٢٢ ط الثانية ١٩٩٤م

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد ، وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم[1] .

• ثالثاً : أسباب منع الهدى :

تبين السورة أيضاً أن الهدى لا يحصل عليه صنفان من الناس : « المغضوب عليهم » ، و « الضالين »[2] .

---

(١) سورة الفاتحة الآية ٦ ويتأيد ذلك بآيات أخرى أيضاً ، تبين أن الله تبارك وتعالى يعطى الهدى لمن يأخذ بأسبابه .

يقول تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » سورة العنكبوت الآية ٦٩

ويقول تعالى : « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، سورة المائدة الآية ١٦

ويقول تعالى : « هدى وذكرى لأولى الألباب » سورة غافر الآية ٥٤

ويقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » سورة الأنفال جزء من الآية ٢٩ — أى نورا يفرق به بين الحق والباطل ويخرج به من الشبهات ولذا يقول الرسول — ﷺ — من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ووفقه فيما يعمل ، حتى يستوجب الجنة ، ومن لم يعمل بما يعلم تاه فيما يعلم ، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان .

وهذا تصريح بضلال النظر التجريدى أى الخالى من العملى ، وعدم التوفيق يستوجب النار فى الآخرة .

(٢) سورة الفاتحة الآية ٧ وتفصل الآيات الأخرى جوانب من =

— الصنف الأول : من يعادون الله فيغضب عليهم « غير المغضوب عليهم » وهم الذين تجاوزوا بتجاوز القوة الغضبية فظلموا ، وفسقوا بترك الأحكام كتمرد اليهود ومن هنا ذكر القرآن الكريم — العاقبة التى تنفر كل نفس وهى نزول غضبه تعالى واختار الاسم الذى من شأنه الاستمرار إشارة إلى أن العصيان والشر إنما يكون سمة إذا لم ينقطع بالتوبة والعفو .

— الصنف الثانى : من يستقلون بمنهجهم عن الله فيضلون « ولا الضالين » وهم الذين ضلوا عن الطريق الحق بسبب غلبة الوهم والهوى على العقل والوجدان ، ووقعوا فى النفاق بالاعتقاد الباطل كسفسطة النصارى .

واختار القرآن نفس صفتهم ، لأن نفس الضلالة ألم ينفر النفس وتجتنب منه الروح وإن لم ير النتيجة ... وإسماً لأن الضلالة إنما تكون ضلالة إذا لم تنقطع[1] بالدخول فى التوبة ، وبهذا يشير البيان إلى أن كل الألم فى الضلالة ، وكل اللذة فى الإيمان »[2] .

= أسباب منع الهدى كما فى قول الله تبارك وتعالى :

« والله لا يهدى القوم الظالمين » سورة البقرة الآية ٢٥٨

« والله لا يهدى القوم الكافرين » سورة البقرة الآية ٢٦٤

« والله لا يهدى القوم الفاسقين » سورة التوبة الآية ٨٠

« كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » سورة غافر الآية ٣٤

(١) راجع بديع الزمان النورسى المجموعة الكاملة لرسائل النور مجلد إشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز ج ٥ ص ٣٦ ط ١٩٩٤ م

(٢) راجع الدكتور يحيى هاشم المرجع السابق ص ٢١ =

. . . . . .

= ونقول : كما يقول صاحب دراسة مداخل إلى العقيدة الإسلامية إن الفلسفات والعلوم التجريبية التى يصل إليها العقل مستقلا خاضعة حتما لما تخضع له عقولنا من النسبية والنقصان .

لذلك فإن ما نصل إليه اليوم من علم يظهر لنا نقصه غدا ، وما نزال نكتشف بتقدم البحث جهلنا ، وهزال معارفنا ، وحاجتنا إلى الهدى واليقين الذى لا تفرزه عقولنا .

وفى ظل هذه العلوم النسبية والفلسفات الناقصة يتقدم العلم التجريبى ، ويطرد الحصول على بعض منافع الدنيا ، لكن الإنسانية لا بد لها فى حركتها إلى الأمام سواء عن طريق العلم أو الفلسفة — من أن تكون لها أهداف ثابتة واضحة راسخة على مدى الدهور ، وإلا كان ضلالها عن أهدافها لا يمكن تلافيه ، أو البرء عنه . كما أن العلوم النسبية تضل دائما عن الأهداف البعيدة الراسخة .

وهذا ليس من شأنها ، ولا يمت إلى قدرتها بسبب ، ومن هنا كان الإنسان بحاجة إلى مصدر خارجى يهديه إلى هذه الأهداف ويرسم لها الطريق وهذا يتكامل مع بداية الحديث وأن .

هذا البيان لنتيجة الهدى وفائدته فى نهاية المطاف يتكامل مع بداية الحديث وأن مصدر الهدى من الله ليس هذا فحسب بل ونتيجة الهدى وفائدته إنما تكمن فى تحصيل اليقين الذى نحن بحاجة إليه لسكون النفس من جانب وللعلم بالأهداف العليا والطريق إليها من جانب آخر .

رابعاً : نتيجة الهدى وفائدته :

تبين السورة أن نتيجة الهدى هى الوصول إلى الصراط المستقيم « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم » وفى هذا الصراط المستقيم يحصل اليقين المنشود الذى أثبتنا أنه لا يمكن الحصول عليه بالجهود العقلية الذاتية ، المستقلة عن الله .

إن العقل المتمرد ، أو المستقل يمكنه أن يصل إلى شىء من الظن ، لكنه لا يصل مستقلا إلى شىء من الهدى ، الذى تشعر فيه النفس بالطمأنينة والسكون واليقين[1] .

وهنا يتحقق الوصول إلى الصراط المستقيم بهدى الله تبارك وتعالى القائل فى كتابه الكريم : « قل إن هدى الله هو الهدى »[2] وهذا يوقفنا على أن مورد المعرفة الإستدلالية لرسائل النور التى هى درس قرآنى يوافق أفهام العصر كداخل التسليم لنفس الإنسان القادم إلى الحياة الدنيا تصدر من الخالق وتتوجه إلى المخلوق .

وأن وجود الإنسان هو نقطة المركز من دائرة عالم « النورسى فى الاستدلال الفكرى « وعقله موضع نقاشه ، وقلبه وروحه متلبس بصيرته »[3] ولذا كان لتلقى المعرفة الإلهية طرفان :

- طرف من المصدر وهو الله .
- وطرف من المورد وهو الإنسان .

---

(١) المرجع السابق .
(٢) سورة البقرة الآية ١٢٠
(٣) راجع الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ المرجع السابق ص ١٠

ومن هنا كان مصدر المعرفة الإيمانية التى دعا إليها القرآن يخاطب الإنسان من حيث هو إنسان . فلا يخاطب طبقة معينة من البشر يرتفع بها أو ينخفض . . .

فيقع فى التناقض مع المستويات الأخرى .

ولا يخاطب فى الإنسان قوة من قواه دون الأخرى . . .

فيقع فى التناقض مع القوة التى يهملها .

وإنما يتوجه إلى الإنسان . كإنسان

قال تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله »[1] .

وهذا يفيد أن الدين فطرة الله وأن الإنسان فطرة الله وأنه جدير بإيقاظ الإنسان لمنبهات الإدراك الفطرى الذى خلقه الله عليه يتطابق مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها لا أنه نفس الفطرة الموجودة فى الناس ، فالدين أمر والناس أمر آخر ، ولما كان كل منهما فطرة الله فكان لابد من التلاقى أو التلقى بين الدين وبين الإنسان .

كما يفيد أن توجيهات الدين تلتقى مع الإنسان فى قواه المختلفة والمتعددة ، وتتعامل معها جميعا : العقل والإرادة والوجدان ذلك أن الصفات النفسية للإنسان مرتبط بعضها ببعض ويؤثر بعضها فى بعض كما وقفنا على ذلك فيما تقدم[2] . والاعتقاد وهو حالة نفسية

---

(١) سورة الروم الآية ٣٠ وراجع دكتور يحيى هاشم المرجع السابق ص ٢٣
(١) راجع ص ٤ من هذا المبحث .

مرتبط بالصفات النفسية كلها يتأثر بها ويؤثر فيها[١] .

ومن هنا فقد بات واضحا أن تكون الوحدة الجامعة لهذه القوى ممثلة فى المجموع الذى هو الإنسان كما يقول — صاحب دراسة مداخل إلى العقيدة الإسلامية — وهذا الموقف الإسلامى من قوى النفس الثلاث راجع إلى كون الإسلام صادراً من الله سبحانه من ناحية ، موجهاً إلى الإنسان من ناحية أخرى ، فصدور هذا الدين من الله إلى الإنسان يعنى أنه صادر ممن يعرف طبيعة الإنسان وقواه الأساسية التى يتألف منها وأبعاد هذه القوى وأغوارها ومداها ، أى « وسعها »[٢] قال تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها »[٣] وقال تعالى « لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها »[٤] .

فكان لابد أن يلتقى بالإنسان فى جميع قواه .

ومن هنا يصبح التسليم الذى يعنيه الإسلام ليس هو التسليم لقوة فى النفس عقلية أو غيرها وإنما هو أن تسلم قوى النفس الثلاث الإرادة والعقل والوجدان — للقوة الأعلى وهذا هو معنى قوله تعالى : « قل أى شىء أكبر شهادة »[٥] .

لم يقل شهادة العقل أو القلب . . .

---

(١) راجع دكتور يحيى هاشم مداخل لدراسة العقيدة الإسلامية ص ٣١ ط ١٩٨٥ م

(٢) راجع دكتور يحيى هاشم حسن فرغل المرجع السابق .

(٣) سورة البقرة جزء من الآية ٢٨٦

(٤) سورة الطلاق جزء من الآية ٧

(٥) سورة الأنعام جزء من الآية ١٩

وإنما « قل الله شهيد بينى وبينكم »[١] .

وهذه الآية إذن تتحدث عن الله لا باعتباره خالقا وأصلا للوجود فحسب ، ولكنها تتحدث عنه كأصل للبيان الإيمانى للإنسانية عامة .

« وإن إلى ربك الرجعى »[٢] .

ومن هنا كان خطاب القرآن الكريم للإنسان : « ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا ، فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب »[٣] .

لقد سبر « بديع الزمان النورسى » غور الإنسان بمسبار القرآن ، وجال فى آفاق نفسه ، وأوغل فى مجاهيل ذاته ، وعاد من رحلته الاستكشافية هذه ليقرر أن « الإنسان » حجة القرآن على الإنسان نفسه ، وأنه العالم الأصغر الذى ينطوى على ما ينطوى عليه العالم الأكبر من المتناقضات والأضداد ؛ ففى وجوده عدم ، وفى عدمه وجود ، وفى حياته موت ، وفى موته حياة .....

وبكلمة جامعة يتجاور فيه سلبه وإيجابه ، إلا أنه ترك له الخيار ، ومنح الإرادة ليربط أسبابه بأسباب أى من السلب أو الايجاب »[٤] .

لقد انطلق بديع الزمان « النورسى » فى بيان منهجه الإيمانى من فيض القرآن إلى أعماق النفس والوجدان ليس هذا فحسب بل والآفاق المرئية

---

(١) سورة الأنعام جزء من الآية ١٩

(٢) سورة العلق الآية ٨

(٣) سورة الشرح الاية ٨

(٤) الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ مطارحات فى المعرفة الايمانية عند النورس ص ١١ ط ١٩٩٧ م

والمدركة فى ترابط ينير الطريق للعقل ويريح القلب عبر نظرة واحدة فى جوانب المعرفة الكونية التى تشرف على الكائنات من خلال قول الله تعالى : « الله نور السموات والأرض »[1] .

إن ذلك المسافر الذى أرسل إلى الدنيا لأجل الإيمان ، والذى قام بسياحة فكرية فى عالم الكائنات للاستفسار عن خالقه من كل شىء ، والتعرف على ربه فى كل لحظة ، وترسخ إيمانه بدرجة حق اليقين ، بوجوب وجود إلهه الذى يبحث عنه خاطب هذا « السائح » عقله قائلا : هلم نخرج معاً فى سياحة أخرى جديدة لنرى من خلالها براهين تقودنا إلى وحدانية خالقنا الجليل سبحانه وتعالى .

وطفقا معاً يبحثان بشوق غامر عن البراهين الإيمانية ، ولذا فمن الأفضل أن نقتطف بعض النماذج الواردة على لسان السائح كما هى فى رسائل النور ليقف القارىء على ما تحمله من براهين فى كتاب الله المقروء كما هى فى كتاب الله المنظور .

قال الله تعالى : « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير »[2] والآية نفسها تفيد بإعجاز جميل المعانى الواردة فى هذه الصحيفة .

وفهم ما تردده كرة الأرض بجميع صحائفها وبنسبة جسامتها وقوتها من : لا إله إلا هو .

---

(١) سورة النور الاية ٣٥ وراجع المؤلف فى المؤتمر العالمى الثالث لبديع الزمان سعيد النورسى بحث بعنوان أضواء على حقيقة التوحيد فى فكر الامام النورسى ص ٧٠ ط الأولى ١٩٩٦ م

(٢) سورة الروم الاية ٥٠

وهكذا لأجل بيان شهادة مختصرة ، لوجه واحد فقط ، من وجوه صحيفة واحدة ، من الصحائف الواسعة لكرة الأرض ، التى تربو على العدد ، ولأجل بيان ما أفادته مشاهدات ذلك السائح فى سائر الوجوه والصحائف ، ذكر فى المرتبة الثالثة من المقام الأول :

[لا إله إلا الله الواجب الوجود الذى دل على وجوب وجوده فى وحدته : الأرض بجميع ما فيها ، وما عليها ، بشهادة عظمة إحاطة حقيقة : التسخير ، والتدبير ، والتربية ، والفتاحية وتوزيع البذور والمحافظة والإدارة ، والإعاشة ، لجميع ذوى الحياة ، والرحمانية والرحيمية العامة الشاملة المكملة بالمشاهدة] .

• • •

ثم أصبح ذلك المسافر المتفكر كلما قرأ صحيفة قوى إيمانه الذى هو مفتاح السعادة ، وزادت معرفته بالله التى هى مفتاح المدارج المعنوية ، وانكشفت لبصيرته درجة أخرى من حقيقة الإيمان بالله الذى هو الأساس القويم لجميع الكمالات ومنبعها الثر العذب ، ومع أنه قد وعى درساً بليغة وتامة من السماء والجو والأرض ، بات يطلب المزيد ، كلما منحته تلك الصحائف أذواقاً معنوية لطيفة ، ولذائذ روحية كثيرة ، مثيرة شغفه ، منبهة ولعه بشدة قائلا : هل من مزيد ، وإذا به يسمع صدى اذكار « البحار والأنهار العظيمة » التى تتدفق خشوعاً وشوقاً ، فينصت إلى همس أصواتها الحزينة اللذيذة ، وهى تقول بلسان الحال والمقال : « ألا تنظر إلينا ؟ ألا تطالعنا ؟ » فينظر بلهفة حائرة ويرى :

ان البحار التى تتماوج بحيوية وتتلاطم بشدة دوماً ، والتى من شأنها التشتت والانسكاب والاغراق ، قد أحاطت بكرة الأرض ، فهما تسيران معاً فى منتهى السرعة وتجريان فى سنة واحدة ضمن دائرة لا تدخل تحت

العد وعلى الرغم من كل هذا فهي لاتتفرق أبداً ولا تنسكب مطلقاً ولاتستولى على جارتها اليابسة ، فلابد من أنها تسكن وتسير وتحفظ بأمر من له القدرة المطلقة ، والعظمة المطلقة .

ثم ينظر إلى جوف البحر فيرى علاوة على آلئه المشعة التى هى فى غاية الجمال والزينة والانتظام ، أن اعاشة آلاف الحيوانات المتنوعة وإدارتها وتعيين مواليدها ووفياتها تجرى فى منتهى الانتظام والاتقان : وأن مجىء ارزاقها ونشوء أقواتها من رمل بسيط ومن ماء أجاج ، ميسور وكامل بحيث يثبت بداهة أنه لايتم إلا بإدارة القدير ذى الجلال ، واعاشة الرحيم ذى الجمال .

ثم ينظر ذلك المسافر إلى الأنهار فيرى أن فيها من المنافع والمصالح ولها من الخدمات والوظائف وما تنتجه من مصاريف وماترده من موارد محسوب بحكمة واسعة ، وبرحمة عظيمة بحيث تثبت بداهة أن جميع الجداول والترع والينابيع والسيول والأنهار العظيمة تنبع وتجرى من خزينة الرحمن ذى الجلال والإكرام بل أنها تخزن وتدخر ادخاراً خارقاً للمألوف ، فتصرف وتجرى جرياً فوق المعتاد حتى ورد فى الحديث الشريف ما معناه : أن أنهاراً أربعة تجرى من الجنة[1] .

بمعنى أن جريان هذه الأنهار ؛ هو فوق حسابات الأسباب الظاهرة بكثير . لذا فهى لا تجرى إلا من خزينة جنة معنوية لا ينضب ومن فيض منبع غيبى لا ينفد .

---

(١) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة » . . مسلم : كتاب الجنة : ٢٦ ، وفى الخطيب البغدادى « ليس من الجنة فى الأرض شىء إلا ثلاثة أشياء : غرس العجوة والحجر وأراق تنزل فى الفرات كل يوم بركة من الجنة » . وانظر فيض القدير ٣٨١/٥ .

فمثلا : هذا نهر النيل الذى حول صحراء مصر القاحلة إلى جنة الدنيا ، يجرى كبحر صغير دون نفاد ، وينبع من جبل واقع فى الجنوب يدعى جبل القمر ، فلو جمعت صرفياته لستة أشهر وجمدت ، لحصل ما هو أعظم من ذلك الجبل ! والحال أن ما خصص له من مكان للخزن لا يبلغ سدس ذلك الجبل ، أما وارداته فقليله ضئيلة ، حيث أن شحه الأمطار وشدة حرارة المنطقة وتعطش الأرض ، كل ذلك مجتمعاً لا يفسح مجالا للخزن إلا للقليل ، ولا يسمح للمحافظه على ميزان وارداته وصرفياته ؛ لذا قد روى أنه يجرى من « جنه » غيبية هى فوق القوانين الأرضية المعتادة ، فأفادت تلك الرواية حقيقة لطيفة ذات مغزى عميق جداً .

وهكذا رأى السائح شهادة واحدة وحقيقة واحدة ، من آلاف الشهادات والحقائق التى هى واسعة سعة البحار نفسها . وفهم أن جميعها تردد معاً بالإجماع ، وبقوة عظمة البحار : « لا إله إلا هو » وبرز أمامه شهود بعدد مخلوقات البحار على صدق هذه الشهادة .

ولبيان شهادات البحار والأنهار جميعها ، أفادت المرتبة الرابعة من المقام الأول ما يأتى :

[لا إله إلا الله الواجب الوجود الذى دل على وجوب وجوده فى وحدته : جميع البحار ، والأنهار ، بجميع ما فيها ، بشهادة عظمة إحاطة حقيقة التسخير ، والمحافظة والادارة الواسعة المنتظمة بالمشاهدة] .

• • •

ثم تدعو الجبال والصحارى ذلك المسافر المستغرق فى السياحة الفكرية قائلة : « ألا تقرأ صحيفتنا أيضاً ؟ » . . فهو بدوره يحدق النظر ، ويرى :

ان وظائف الجبال الكلية ، وفوائدها العامة هى من العظمة والحكمة مما يحير العقول .

فمثلا بروز الجبـــال واندفاعها من الأرض بأمر ربانى يهدىء هيجان الأرض ويخفف من غضبها وسخطها وحدتها الناجمة من تقلباتها الباطنية ، ويدعها تتنفس مستريحة بفوران تلك الجبال ومن خلال منافذها ، فتتخلص بذلك من الزلازل المهلكة والتصدعات المدمرة فلا تعد تسلب راحة الآمنين من سكنتها . وكما ينصب على السفن الأعمدة والأوتاد حفاظاً على توازنها ووقايتها من التزعزع والغرق ، كذلك الجبال هى أوتاد ذات خوازن لسفينة الأرض ، تقيها من الزلزال وتثبتها وتحفظ توازنها وقد بين القرآن الكريم هذا المعنى فى آيات كثيرة منها :

« والجبال أوتاداً »(١) « وألقينا فيهـــا رواسى »(٢) « والجبال أرساها »(٣) .

ومثلا : أن مافى جوف الجبال من أنواع الينابيع والمياه والمعادن والمواد والأدوية التى يحتاج إلى كل منها ذوو الحياة ، قد أدخرت بحكمة ، وأحضرت بكرم ، وخزنت بتدبير . بحيث تثبت بداهة أن هذه الجبال هى خزائن ومستودعات إدخار تحت أمر القدير الذى لا نهـــاية لقدرته ، والحكيم الذى لا نهاية لحكمته . فيدرك السائح هذا ، ويقيس على هاتين الجوهرتين ما يليهما من وظائف الجبال والصحارى وحكمها — التى هى بضخامة الجبال وسعة الصحارى — فيرى أن الجبال والصحارى تشهدان ، وتوحدان بـ « لا إله إلا هو » بلسان جميع حكمها وبلغة جميع وظائفها وبخاصة

(١) سورة النبأ الآية ٧
(٢) سورة الحجر الآية ١٩
(٣) سورة النازعات الآية ٣٢

ادخارهما للاحتياطى من المواد ، وأن تلك الشهادة والتوحيد لهما من القوة والرسوخ ما للشم العوالى ، ولهما من الشمول والسعة ما للقفار والصحارى فيردد اللسان بخشوع : آمنت بالله

وهكذا ذكر فى المرتبة الخامسة من المقام الأول لبيان هذا المعنى ما يأتى :

[لا إله إلا الله الواجب الوجود الذى دل على وجوب وجوده : جميع الجبال والصحارى ، بجميع ما فيها ، وما عليها ، بشهادة عظمة إحاطة حقيقة : الإدخار ، والإدارة ، ونشر البـــذور ، والمحافظة ، والتدابير الاحتياطية الربانية الواسعة العامة المنتظمة المكملة بالمشاهدة] .

• • •

وبينما كان ذلك المسافر يجول بفكره فى الجبال والصحارى ، انفتح أمام فكره باب عالم « الاشجار والنباتات » يدعوه قائلا : « هلم إلينا وجل فى رياضنا واقرأ سطورنا » .. فدخل ورأى :

ان الأشجار والنباتات قد عقدت مجلساً فخماً رائعاً للتهليل والتوحيد ، وشكلت حلقة مهيبة للذكر والشكر ، ففهم من ألسنة أحوالها كأنها تلهج معاً ، وتردد بالإجماع : « لا إله إلا هو » لما رأى من ثلاث حقائق كبرى

كلية تدل على أن جميع الأشجار المثمرة وجميع النباتات المزهرة تؤدى شهادتها مسبحة وتقول معـــاً بالألسنة الفصيحة لأوراقها الموزونة ، وبالكلام الجزيل لأزهارها الجميلة ، وبالكلمات البليغة لأثمارها المنتظمة « لا إله إلا هو » :

أولاها : حقيقة الأنعام والإكرام المقصودين ، والإحسان والامتنان الإراديين ، التى يحس معناها إحساساً ظاهراً فى كل نبات وشجر ، مثلما هى حقيقة واضحة وضوح ضوء الشمس فى الكل .

ثانيتها : حقيقة التميز والتفريق المقصودين بحكمة ، والتزيين والتصوير الإراديين برحمة ، وهى واضحة وضوح النهار — حقيقة ومعنى — فالتميز بين تلك الأنواع والأفراد غير المحدودة غرض مقصود ، والاختلاف والتباين بينها حكمة مطلوبة ، ولمسات التجميل والتحسين رحمة مرادة ، وهذه الحقيقه واضحه وضوحاً لايدع مجالا قط لنسبتها إلى المصادفة ، مما يظهر عياناً أنها آثار الصانع الحكيم ونقوشه البديعة .

ثالثتها : حقيقه فتح صور المصنوعات غير المحدودة ، بمئات الآلاف من الأنماط المختلفه والأشكال المتنوعه فتحاً من حبوب معدودة متشابهة ، ومن نوى محدودة متماثلة ، واستنباتها فى غاية الانتظام والميزان وبمنتهى الزينة والجمال ، رغم أنها بسيطة جامدة ومختلطة بعضها ببعض ، ففتح صور كل فرد من أفراد تلك الأنواع المتباينة — التى تربو على مائتى ألف نوع — كل على إنفراد ، بانتظام كامل ، وبموازنة تامة ، وبحيوية وحكمه ، وبدون خطأ ، لهو حقيقة ساطعة جلية أسطع من الشمس .

ففهم السائح أن هناك شهوداً ودلائل إثبات على تلك الحقيقة بعدد أزهار الربيع ، وبعدد أثماره وبعدد أوراقه وموجوداته فعبر عما جاش فى قلبه من معان كريمه فقال : الحمد لله على نعمة الإيمان .

ولبيان هذه الحقائق والشهادات ذكر فى المرتبه السادسه من المقام الأول الآتى :

[لا إله إلا الله الواجب الوجود الذى دل على وجوب وجوده فى وحدته : إجماع جميع أنواع الأشجار والنباتات ، المسبحات الناطقات : بكلمات أوراقها الموزونات الفصيحات ، وأزهارها المزينات الجزيلات ، وأثمارها المنتظمات البليغات ، بشهادة عظمة إحاطة حقيقة : الإنعام ، والإكرام ، والإحسان ، بقصد ورحمة ، وحقيقة : التميز ، والتزيين ،

والتصوير ، بإرادة وحكمة ، مع قطعية دلالة حقيقة فتح جميع صورها الموزونات المزينات المتباينة المتنوعة غير المحدودة ، من نويات وحبات متماثلة متشابهة محصورة معدودة] .

* * *

وبينما كان السائح الشغوف — الذى أزداد بالسمو ذوقاً وشوقاً — عائداً من تلك السياحة الفكرية مبتهجاً بلذة وقوفه على الحقيقة وعثوره على جنات الإيمان ، راجعاً من بستان الربيع ، حاملا باقة كبيرة واسعة — من ازهار المعرفة والإيمان — سعة الربيع نفسه ، إذا بباب عالم الطيور والحيوانات ينفتح إزاء عقله التواق للحقيقة ، وفكره المشتاق للمعرفة ، تدعوه تلك الطيور والحيوانات بمئات الألوف من الأصوات المتباينة ، والألسنة المختلفة ، للدخول إلى ذلك العالم الفسيح ، وترحب بمقدمه إلى عالمها .. فدخله ، ورأى أن جميع الطيور ، وجميع الحيوانات ، بأنواعها وطوائفها وأممها كافة تذكر متفقة : « لا إله إلا هو » بلسان حالها ومقالها حتى لكأن سطح الأرض مجلس ذكر مهيب ، ومجمع تهليل عظيم .. ورأى أن كلا منها بحد ذاته بمثابة قصيدة ربانية تترنم بآلاء الربوبية . . وكلمة سبحانية ناطقة بالتقديس لبارئها . . وحرف رحمانى ذى مغزى ينم عن الرحمة الإلهية . فالجميع يثنون على خالقهم ، ويصفونه بالحمد والثناء وكأن حواس تلك الطيور والحيوانات ومشاعرها وأعضائها ، وآلاتها ، وأجهزتها ، وقواها ، كلمات موزونة منظومة ، وكلام فصيح بليغ ..

فشاهد السائح فى ذلك ثلاث حقائق عظيمة محيطة ، تدل دلالة صادقة على أن تلك الطيور والحيوانات تؤدى شكرها تجاه خلاقها ورزاقها بتلك الكلمات ، وتشهد على وحدانيته سبحانه بذلك الكلام .

أولاها : حقيقة الإيجاد والصنع والإبداع ، أى حقيقة الإحياء ومنح الروح ، التى لا يمكن نسبتها مطلقاً إلى المصادفة العشواء والقوة

العمياء والطبيعة الصماء ؛ إذ هى ايجاد من عدم يقع بحكمة ، وإبداع مقرون باتقان ، وخلق مصحوب بإرادة ، وانشاء مبنى على علم . وهى تظهر بجلاء تجلى « العلم والحكمة والارادة » بما يفرق الحصر ، وهى برهان باهر على وجوب وجود « الحى القيوم » ، وشاهد حق على صفاته السبعة الجليلة وآية صدق على وحدانيته جل وعلا . أى أن حقيقة الاحياء تدفع إلى الوجود شهود إثبات بعدد ذوى الأرواح كلها .

ثانيتها : حقيقية التميز والتزيين والتصوير التى تتضح من خلال تلك المصنوعات غير المحدودة التى يختلف بعضها عن بعض بعلامات فارقة متميزة فى الوجوه ، وبأشكال مزينة جميلة متباينة ، وبمقادير موزونة دقيقة مختلفة ، وبصور منتظمة منسقة . فهى حقيقة قوية عظمى بحيث لا يمكن ان يمتلك هذا الفعل المحيط الذى يُبرز عياناً ألفا من الحكم والخوارق سوى القادر على كل شىء والعالم بكل شىء ، وليس هناك إمكان أو احتمال آخر قط .

ثالثتها : حقيقة فتح صور تلك الحيوانات غير المحدودة بمئات الآلاف من الأشكال والانماط ، من بيوض وبويضات متماثلة معدودة ، ومن قطرات محدودة ، متشابهة أو مختلفة بفارق طفيف . ففتح تلك الصور — التى هى بحد ذاتها معجزة الحكمة — بانتظام كامل ، وموازنة تامة ، دونما خطأ ولا زيادة أو نقصان ، إنما هو حقيقة ساطعة باهرة تستقى نورها من دلائل وأسانيد بعدد الحيوانات جميعها .

وهكذا شاهد السائح عالم الطيور والحيوانات وتلقى درساً كاملا من دلالة هذه « الحقائق الثلاث » المتفقة ، دلالة واضحة على إن جميع أنواع الحيوانات تشهد قائلة معاً : « لا إله إلا هو » حتى غدت الأرض كأنها إنسان

ضخم جداً ، تذكر « لا إله إلا هو » بنسبة كبرها وضخامتها فتملأ من شدتها وقوتها قبة السماء حتى يسمعها أهل السماوات[1] .

ثم يتابع الحديث فيقول فى مؤلفه أشارات الأعجاز :

وأعلم أن كل الألم فى الضلالة وكل اللذة فى الإيمان . فإن شئت تأمل فى الدنيا تأمل فى حال شخص ، بينما أخرجته يد القدرة من ظلمات العدم وألقته فى الدنيا — تلك الصحراء الهائلة — إذ يفتح عينيه مستعطفاً البليات والعلل كالأعداء تتهاجم عليه ، فينظر مسترحماً إلى العناصر والطبائع فيراها غليظة القلب بلا رحمة قد كشرت عليه الأسنان ، فيرفع رأسه مستمداً — إلى الأجرام العلوية فيراها مهيبه ومدهشة تهدده كأنها مرامى قنابل وقذائف نارية من أفواه هائلة حوالية ، فيتحير ويخفض رأسه متستراً ويطالع نفسه ، فيسمع ألوف صيحات حاجاته وأنين فاقاته ، فيتوحش ، فينظر إلى وجدانه ملتجأ ، فيرى فيه ألوفاً من آمال متهيجة ممتده لا تشبعها الدنيا .

فبالله عليك كيف حال هذا الشخص إن لم يعتقد بالمبد أو المعاد والصانع والحشر ؟ أتظن جهنم أشد عليه من حاله وأحرق لروحه ؟ فإن له حالة تركبت من الخوف والهيبة والعجز والرعشة والقلق والوحشه واليتم واليأس لأنه إذا راجع قدرته يراها عاجزة ضعيفه ، وإذا توجه إلى تسكين حاجاته يراها لا تسكت ، وإذا صاح إستغاث لا يسمع ولا يغاث فيظن كل شىء عدواً ، ويتخيل كل شىء غريباً فلا يستأنس بشىء ، ولا ينظر إلى

---

(١) للإمام بديع الزمان سعيد النورسى مجلد الشعاعات ح ٥ ص ١٥٥ ط ١٩٩٢م

دورات الأجرام إلا بنظر الخوف والدهشة والتوحش المزعجه للوجدان.

ثم تأمل فى حال ذلك الشخص إذا كان على الصراط المستقيم واستضاء وجدانه وروحه بنور الإيمان، كيف ترى انه إذا وضع قدمه فى الدنيا وفتح عينيه فرأى تهاجم العاديات الخارجية يرى إذاً «نقطة إستناد» يستند إليها فى مقابلة تلك العاديات، وهى معرفة الصانع فيستريح.

• ثم إذا فتش عن إستعداداته وآماله الممتدة إلى الأبد يرى «نقطة استمداد» يستمد منها آماله وتتشرب منها ماء الحياة وهى معرفة السعادة الأبديه، وإذ يرفع رأسه وينظر فى الكائنات يستأنس بكل شىء. . . . ويرى فى حركات الأجرام حكمه خالقها ويتنزه بسيرها وينظر نظر العبرة والتفكر.

كأن الشمس تنادية: أيها الأخ !! لا تتوحش منى فمرحباً بقدومك! نحن كلانا خادمان لذات واحد، مطيعان لأمره. والقمر والنجوم والبحر وأخواتها يناجيه كل منها بلسانه الخاص وترمز إليه: بأهلا وسهلا أما تعرفنا؟ كلنا مشغولون بخدمه مالكك فلا تضجر ولا تتوحش ولا تخف من تهديد البلايا بنعراتها، فإن لجام كل بيد خالقك. فذلك الشخص فى الحاله الأولى يحسى فى أعماق وجدانه ألماً شديداً فيضطر للتخلص منه وتهوينه وإبطال حسه بالتسلى، وبالتغافل، وبالاشتغال بسفاسف الأمور، ليخادع وجدانه وينام روحه، وإلا أحس بالم عميق يحرق أعماق وجدانه فبنسبة البعد عن الطريق الحق يتظاهر تأثير ذلك الألم.

وأما فى الحالة الثانية فهو يحس فى قعر روحه لذة عالية وسعادة عاجلة كلما أيقظ قلبه وحرك وجدانه وأحس روحه استزاد سعادة واستبشر بفتح أبواب جنات روحانيه له.

اللهم بحرمه هذه السورة اجعلنا من أهل الصراط المستقيم[1].

وتغمد النورسى برحمتك يا كريم والصلاة والسلام على خاتم الانبياء والمرسلين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ا. د. سامى حجازى

---

(١) الإمام بديع الزمان سعيد النورسى اشارات الإعجاز فى مظان الإيجاز ح ٥ ص ٣٨ ط ١٩٩٤.

الفهرس

البحث	الصحفه
المقدمة	
بقلم : أ . د . عبد المعطى محمد بيومى عميد الكلية ورئيس قسم العقيدة والفلسفة	٧—٨
١ — ابن رشد الهوية والموقف العقلى بقلم : أ . د . عبد المعطى محمد بيومى	٩—٤٢
٢ — دلالة العام بين القطعية والظنية بقلم : أ . د . إبراهيم عبد الرحمن خليفة أستاذ ورئيس قسم التفسير	٤٢—٩٤
٣ — المنهج الاستدلالى فى القرآن الكريم فى فكر الإمام النورسى بقلم : أ . د . سامى عفيفى حجازى الأستاذ بقسم العقيدة والفلسفة	٩٥—١١٨
٤ — الرد على طعن المستشرقين فى أحاديث التوحيد بقلم : د / على على على شاهين الأستاذ المساعد بقسم الدعوة والثقافة الإسلامية	١١٩—٢٠٠
٥ — السنة النبوية وضرورة الاتباع وخطورة الابتداع بقلم : د / محمود عبدالوهاب عبد الحفيظ رحمة المدرس بقسم الحديث وعلومه	٢٠١—٢٥٢
٦ — نظرات فى بنية علم الأخلاق بقلم : د . محمد يسرى جعفر المدرس بقسم العقيدة والفلسفة	٢٥٣—٣٠٠

البحث	الصفحة
٧ ـ الانصاف فيما ورد فى الترادف من خلاف بقلم : د / طه عبد الخالق عبد العزيز طيطة المدرس بقسم التفسير وعلومه	٣٠١-٣٦٠
٨ ـ فقه الواقع بقلم : أ . د . عبد المعطى محمد بيومى	٣٦-١٢٧٤
٩ ـ بقية بحث المنهج الاستدلالى فى القرآن الكريم فى فكر الإمام النورسى بقلم : أ . د . سامى عفيفى حجازى الأستاذ بقسم العقيدة والفلسفة	٣٧٥-٤٠١
الفهرست	٤٠٣-٤٠٤

رقم الإيداع بدار الكتب
٦١٣٣ لسنة ١٩٩٧ م
فى ٥ / ٤ / ١٩٩٧ م